المُنَسْتِير: مدينة الرباطات والزهّاد في العصر الوسيط

رياض المرابط ■

تقع مدينة المنستير على الساحل الشرقي للبلاد التونسية (164 كلم جنوب تونس العاصمة) وهي على خط عرض القيروان نفسه تقريباً، ولا تفصلها عنها سوى 70 كلم.

تمتد المدينة اليوم على شبه جزيرة مساحتها نحو 600 هكتار يحيطها البحر الأبيض المتوسط من الشمال والجنوب والشرق بينما تنفصل عن اليابسة غرباً بسبخة (مستنقع بحري) مما لا يترك لها سوى ثلاثة أذرع ممدودة نحو سوسة شمالاً ونحو المهدية جنوباً وتخترق طريق ثالثة السباخ في اتجاه القيروان.

قبل أن تشتهر المُنَسْتِير بكونها مسقط رأس الزعيم الحبيب بورقيبة ومثواه الأخير، فقد ذاع صيتها في القرون الخمسة الأولى من الهجرة بوصفها مركز رباط وعبادة، وقلعة من قلاع السُّنة المالكية، حتى أن الواضعين عدّوها

■ أستاذ الآثار الإسلامية والتاريخ الوسيط في جامعتي القيروان وتونس.

أحـد أبـواب الجنة ناسبيـن للرسول ﷺ أحاديـث في هذا الغـرض، من ذلك ما نقرأه لـدى أبي العرب فـى طبقاته، ولدى أبـي عبد الله المالكـي صاحب رياض النفـوس: «عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **ساحـل غموتية باب من أبواب الجنـة يقال له المُنَسْتِير فمن دخله فبرحمـة الله، ومن خرج منه فبعفو الله**»، ويضيـف «عـن أنس قال: قال رسـول الله ﷺ: **من رابـط بالمنستيـر ثلاثة أيام وجبت له الجنة**، قال أنس: بخ بخ يا رسول الله »، وفي السياق نفسه نقرأ: «وعن مطرف بـن عبد الله بن الشخيـر يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنـه قال: **بالمنستير باب من أبواب الجنة يقال له: الأنف أوله قنطرة من قناطر الأولين...**».[1]

عندما نأخذ بعين الاعتبـار أن هذه الأحاديث الموضوعـة وردت في مصادر القرنيـن: الرابع والخامس للهجـرة، وبشكل خاص خلال فتـرة الصدام بين أهل افريقية السُّنـة والخلافة الفاطمية الشيعية الإسماعليـة. وحينما نعلم أن السلطة الفاطميـة قامـت بمصـادرة الأسلحـة، واستصفاء الأمـوال، وتهجيـر العباد عن بعض الرباطـات ـ وبخاصة قصر زبـاد الذي اشتهـر بدار مالـك[2] ـ نفهم بيسر السياق الحقيقي لهـذه الأحاديث الموضوعة؛ ولكن نفهم أيضـاً المكانة المرموقة التي احتلتها المنستير فـي الضمير الإفريقي في العصـر الوسيط، مكانة لا شك أن قصر رباطها الشهير هو الـذي يقف وراءها، وذلك ما سنحاول تسليط الضوء عليـه في هـذه الدراسـة بشـكل أساسي، وعلـى دوره فـي ولادة مدينـة إسلامية بإفريقية ذات طراز خـاص؛ ولكن ولأن التاريخ حلقات مترابطـة لا بد أن نشير ـ ولو باختصار ـ إلى المنستير قبل الإسلام.

---

1 ـ أبـو العـرب التميمي، **طبقات علمـاء إفريقية، تونس**، تحقيق: علـي الشابي، وتقديم: حسين اليافي، تونس 1985، ص 4 ـ 5.

ـ أبـو بكر عبد الله المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهـم وسير مـن أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، تحقيـق: البشير البكوش، ومراجعة: محمد العروسي، دار الغرب **الإسلامي** 1983، ج 1، ص 7 ـ 8.

2 ـ المالكي، **رياض النفوس**...نفس المصدر، ج 2، ص 222.

I- من رسبينا الكنعانية إلى المنستير العربية

1) من الجذور إلى الفتح العربي:

مـا زال يذهب في ظـن الكثيرين أن التاريخ الإفريقي يبـدأ مع حلول الأميرة الكنعانية عليسة، وتأسيسها ـ في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد ـ قرت حدشت أو المدينـة الجديدة التي عرفت بصياغتها اللاتينية «قرطاج»، والحال أن التوسع الفينيقـي وإقامـة المستوطنـات الكنعانية بهـذه الربوع قد بدأت علـى الأقل منذ القرن الثاني عشر قبل الميلادي، والأهم من ذلك أن هذه الربوع لم تكن قَفْراً لا من الناحية البشرية ولا من الناحية الحضارية.

وبالنسبة لشبه جزيـرة المنستير فإن أقدم شواهد الحضور البشري بها تعود إلى نحو ثلاثين ألـف سنة قبل الميلاد، غير أن اللافت للانتباه أكثر أن المنستير ما زالـت تحتفظ في جزيرة محاذية لها وعلـى بعض من سواحلها بمجموعة مهمة مـن الكهوف المنقورة على الواجهات الصخريـة، والمستعملة كمدافن، وقد هيئت لها مراسٍ منقورة أيضـاً، تعرف هذه المجموعة الجنائزية ـ التي تعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد ـ باسم الحوانيت، وتعبِّر مدينة الأموات هذه ـ من ناحية ـ على وجود مستوطنة للأحياء، ومن ناحية أخرى على قدر من التنظيم الاجتماعي؛ نظراً لتنفيذ المدافن بشكل دقيق ومنظم يستوجب وجود سلطة آمرة؛ إذ جاءت في شكل طبقات تفصل بينها ممرات مهيأة علاوة على المراسي التي تفضي إليها[1].

أعطى الكنعانيون أو الفينيقيون للمنستير أقدم أسماءها المعروفة: روش بينا (رأس الزاويـة)، وهو ذاته الاسم الذي صار روسبينا فـي المصادر اللاتينية، لا نعـرف عن روسيينا البونية شيئاً ذا بال، وفـي المقابل نعرف أن القائد الروماني يوليـوس قيصـر قـد اختارها فـي شتاء 47 قبـل الميـلاد معسكـراً لجيوشه قبل

1 ـ Dr. Carton, «excursions et promenades a Monastir (Ruspina)», *B.S.A.S*, 1904 pp43.

مواجهته الحاسمة في السنة الموالية لخصمه بومبيوس في موقعة تابسوس التي تبعد عن مدينتنا نحو 45 كلم جنوباً[1].

كان من المؤمل أن تتدارك المعطيات الأثرية النقص الفادح في المادة الإخبارية للنصوص القديمة؛ إلا أننا لم نظفر سوى بشواهد متفرقة في شبه الجزيرة، لعل أهمها أطلال بيوت وبعض أرضياتها مفروشة بلوحات الفسيفساء القابلة للتاريخ بالقرن الثالث للميلاد، كذلك أطلال حمام روماني محدود الحجم مؤرخ بالقرن الثالث والرابع للميلاد، وذلك بالطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة في الموقع المعروف باسم هنشير التنير الذي عدّ مركز مدينة روسبينا[2].

وتشتت شواهد الحضور الماقبل إسلامي في باقي شبه الجزيرة المكونة للمدينة الحالية؛ إذ عثر على مدفن بيزنطي في الأطراف الشمالية الغربية للمدينة بموقع سقانص[3]، كما عثرنا على ماجل عتيق به كميات مهمة من الكسور الفخارية التي تؤرخ بما بين القرن الرابع والسادس للميلاد؛ إلا أن أهم المكتشفات تهم الجزيرة المحاذية لساحل المنستير، والتي تعرف حالياً باسم جزيرة الغدامسي؛ حيث كشفت الحفريات عن رباط إسلامي هو قصر ابن الجعد تحته طبقة استيطان قديمة تؤرخ بالقرن الرابع للميلاد، وفي جواره قبور لضحايا معركة رهيبة، تدل المؤشرات أن طرفيها هما أواخر الفندال وجيوش القائد البيزنطي ببليسار الذى قاد عملية الإنزال الشهيرة لسنة 535م منهياً بها الوجود الوندالي[4]، ومهما يكن من

1 ـ Kallala (N), «La localisation du site de Ruspina d'après une prospection récente dans la presqu'ile de Monastir», *actes du 113 congé national des sociét és savantes, colleque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord*, Strasbourg 1988T II, p533-555.

2 ـ Kallala (N), «La localisation…», op.cit p523.

3 ـ قام الباحث نبيل قلالة بحفريات في هذا الموقع قبل أن يجتاحه العمران ومدَّنا مشكوراً باستنتاجاته الأولية إلا أن النتائج النهائية لم تنشر بعد.

4 ـ قام الباحث خالد مدود بحفريات في هذا الموقع واكبناها وشارك فيها بعض طلابنا؛ لكن المنية فاجأت الزميل المرحوم، ولم تنشر نتائج التنقيبات.

أمر فإن المعطيات المتوفرة حول ماضي المنستير قبل الإسلام لا تسمح لحد الآن بالتعـرف على طبيعة الشكل التعميري للمدينة العتيقة، ولا على مركزها العمراني، كل مـا يمكن أن نقوله: إن الأمـر يتعلق بمدينة مينائيـة دون هادريمتوم (سوسة) الواقعـة شمالها ودون لبتوس مينور (لمطة) الواقعـة جنوبها على الأقل من ناحية الصيت، لكن الحضور البشري كان منتظماً ومتواصلاً بها إلى فجر الاسلام.

الغريب أن الماضي العتيق للمنستير لا يبوح بسر انتقال التسمية من روسبينا إلى المنستير، كما لا تبوح النصوص العربية المتصلة بأخبار الفتح لا بتاريخ هذا الحـدث المصيري، ولا حتـى باسم الموقع خلال تلك الفترة، مـا يسعنا قوله إنه مـن المفترض أنها فتحت سنة 47 للهجرة عندما فتحت سوسة، سيما وأن سوسة لا تعنـي فقط المدينة التي تحتل هـذا الاسم ـ وهي هادريم القديمة ـ وإنما تعني إقليماً كاملاً كانت شبه جزيرة المنستير أحد مكوناته[1].

2) الفتح العربي الإسلامي إشكالية التواصل مع الموروث العتيق:

إن آخـر ذكر للمدينة في الوثائق القديمة هـو *Ruspina*، وأول ذكر لها من المصـادر الإسلامية هـو المنستير، وهي مسألة تطرح إشـكالاً؛ ذلك أن بعض «مواقـع إفريقية الإسلامية» تخلت عن أسمائهـا اللاتينية القديمة، واسترجعت تسميـات بربريـة محلية: فهادريـم أو جوستينيـا بوليس عـادت سوسة، وطبنة عـادت صفاقس، فهل عادت روسبينا منستيراً أو مستيراً كما هو النطق العامي اليوم؟.

إن المؤشـرات التاريخيـة المتوفـرة حـول هـذه الإشكاليـة قليلـة جـداً ومتناقضـة قد تحتمل التفسير ونقيضه. يذكرنـا لفظ «المنستير» بإلحاح بعبارة «*Monasterium*» اللاتينيـة بمعنى الدير، وهي قرابـة تكاد تكون بدهية فمن أين

1 ـ أحمـد الباهـي، **سوسـة والساحل فـي العهد الوسيـط**، مركز النشر الجامعـي تونس 2004، ص128 ـ 139.

جـاء هذا الاسـم؟ أمن وجود ديـر قديم بالموقـع، أم هو استعـارة للتعبير عن المؤسسة الإسلامية المعروفة بالرباط؟

تمثـل إشـارة هامة لأبـي العرب في طبقاتـه ـ رددت فيما بعـد عند من نقل عنـه ـ مدخـلاً مهمـاً للجـواب عن هـذا التسـاؤل حيث يقـول النـص: (سمعت البهلول بن راشد يقول لوزير هرثمة بـن أعين حين استشاره في بنيان المنستير وعدد له أن هرمثة بنـى بأرمينية وفي غير ما موضع، فقال له البهلول بن راشد: مـا ذكرت شيئـاً إلا والمنستير أفضل منـه) يوحي هذا المقتطـف بوجود الموقع بالاسم المتداول قبل بناء الرباط، سواء وُجد الدير المسيحي أم اندرست معالمه وبقيت ذكراه. ومن المفيد أن نلاحظ أيضاً أن وجود دير لا يعني بالضرورة وجود مدينة في المكان ذاته؛ ذلك أن الاديرة تقام خارج العمران، كما تجدر الملاحظة أن استبعـاد وجـود دير مسيحي تم انطلاقـاً من الأسبار التي قـام بها المهندس الفرنسـي ليزين في أسس قصر الرباط، والتـي أثبت من خلالها أن المعْلم أقيم على أرض بكر عكس نظيره قصر رباط سوسة[1].

وعلى هذا الأساس لا نستبعد وجود دير قديم بالمنستير، ولِمَ يوجد بالضرورة في موضـع قصر الرباط؟ وما من شـك أن العرب الفاتحين لـم يجدوا من هذا الديـر شيئاً ذا بال غير الاسم الذي قـد يكون أعطاه للموقع، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار تدهور الحياة العمرانية في أواخر العهد البيزنطي.

يجب أن نشير إلـى أن الجزيرة المقابلة للمنستيـر والمعروفة اليوم بجزيرة سيـدي الغدامسي، والمعروفة خـلال العصر الوسيط بجزيـرة ابن الجعد دعيت أيضـاً بجزيرة المنستير[2]، ونحن إذا أعدنا صياغـة هذه التسمية بعربية فصيحة تصبح جزيرة الدير، فهل كان إطلاق اسم المنستير على كامل شبه الجزيرة من

1 ـ Lezine (A), *Le ribat de Sousse suivit de notes sur le ribat de Monastir*, Tunis 1959.

2 ـ المالكي، **رياض النفوس**... نفس المصدر، ج 1، ص420.

قبيل تسمية العام بالخاص، وخير مثال على ذلك البلاد التونسية التي تحمل اسم مدينة تونس، والمغرب الأقصى الذي طالما دعي مراكش؟ ولا يفوتنا هنا أن نشير إلـى أن مغاور فجر التاريخ التـي تحتويها هذه الجزيرة مؤهلـة لكي تؤدي وظيفة قلايـات الرهبان، كما عرفت في أرجاء عدة من المشرق العربي، سيما تلك التي انتشرت في سيناء[1]، مرة أخرى لم نخرج من حفل الافتراضات، والتاريخ لا يكتب انطلاقاً من الافتراضات أياً كانت وجاهتها.

أن المنستير لا يمكن أن تعبر عن المؤسسة الدفاعية، فلو كان الأمر كذلك لتحدثت كذلك النصوص عن «منستيرات»

وعلينـا في هذا الشأن أن نعـرض ما ذهب إليه الأستاذ الإسباني ميقوال دي ايبالزا ـ في دراسة حول «منستير شرق الأندلس» ـ مـن أن عبارة «المنستير» ليسـت اسـم مـكان بقـدر مـا هـي اسـم المؤسسة ذاتها التـي انتشرت في المغـرب الإسلامي انطلاقاً مـن منستيـر إفريقيـة، وما عبـارة ربـاط المنستير سـوى تجميع إعلامـي *Juxtaposition Onaomatique* لمصطلحيـن عربيين يعنيـان حقيقة واحدة فـي عصور مختلفـة: «المنستير» إلى القرن الحادي عشر ميلادي، و«الرباط» انطلاقاً من القرن الحادي عشر، واستند في ذلك إلى وجود «منستير شرق الأندلـس» التي أسسها بعض النازحين الأفارقة ممـن كانوا في خدمة الدولة الأغلبية، وكان ذلك سنة 333 هـ/944م[2]. ولو اعتمدنا هذا الاجتهاد فـي قراءة النص السابق لاستنتجنـا أن المعْلم ـ كمؤسسة ـ موجود قبل قدوم هرثمة، ومع كبير التقدير لاجتهاد الأستاذ وعلمه لا يسعنا إلا أن نعترض على ما ذهب إليه للاعتبارات التالية:

1 ـ Otto Meinarous, *Monks and Monastiros of the Egyptian Desert*, the American University at Cairo Press, Cairo 1961, p 9.

2 ـ Di Epalza (M), «*Al Monastir d'Ifriqiya et al Monastir* de Xarq al Andalus», *cahiers de Ceres*, 1991, pp 95-107.

أولاً: أن لفظ «المنستير» ليس عربياً.

ثانياً: أن المنستير لا يمكن أن تعبّر عن المؤسسة الدفاعية، فلو كان الأمر كذلك لتحدثت كذلك النصوص عن «منستيرات» بعدد الحصون والرباطات التي انتشرت على كامل السواحل الإفريقية منذ القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد)، فالألفاظ التي تتردد بكثرة هي «رباط ـ قصر ـ قصر الرباط»، وأحسن مثال على ذلك رباط سوسة قريب العهد من رباط المنستير.

ثالثاً: أن تسمية «منستير شرق الأندلس» لا يمكن أن تكون حجة على ما ذهب إليه الأستاذ؛ لأن العادة جرت أن تستعار أسماء المواقع للدلالة على أخرى من قبيل التيمن، خصوصاً أن مؤسسي «منستير شرق الأندلس» ينحدرون من إفريقية؛ حيث كان لرباط المنستير فضل كبير في وعي الأفارقة على الأقل.

رابعاً: أن النص المشار إليه أعلاه يدل على أن الموقع يحمل اسم «المنستير» قبل إنشاء الرباط أصلاً.

وأخيراً لا يمكّننا نص أبي العرب من تبين الحقيقة كلها، فماذا كانت المنستير التي يلح البهلول بن راشد على أهميتها الاستراتيجية والواجب تداركها بحصن في حجم مشروع الوالي هرثمة؟

يبدو أن موقع المنستير لم يكن خلاء وقفراً قبل حلول هرثمة، وإنما وجدت به جماعة مسلمة منذ القرن الثاني للهجرة على الأقل، فلقد أبرزت حفريات قصر السيدة أم ملال (بداية القرن الخامس للهجرة) قواعد مسجد صغير يقع نصفه الغربي خارج أسس القصر المذكور، مؤرخ بالقرن الثاني للهجرة ـ الثامن للميلاد. وهو ما يؤكد وجود جالية مسلمة بالموقع قليلة العدد قبل حلول هرثمة، ونفهم ذلك جيداً لو أخذنا بعين الاعتبار الظرفية التاريخية التي ميزت المرحلة المبكرة من الوجود العربي بإفريقية؛ حيث عُدّت المقاطعة الجديدة بأكملها ثغراً حولت حصونها الساحلية إلى رباطات، وأقام الجند العربي كيفما اتفق بالمواقع

الاستراتيجية، والمنستير أحدهـا دون ريب التي لا يوجد فيها ما يشير إلى نسيج حضري بقدر ما يشير إلى وجود ثغر إسلامي عامر لم تنقطع فيه الأواصر تماماً بين العهدين البيزنطي والعربي.

II- ولادة مدينة جهادية

يقول الدكتور حسين مؤنس ـ في مقدمته للطبعة الأولى من رياض النفوس ـ : «إذا كانـت المالكية هي العصب الأول للتاريـخ الإفريقي؛ فإن الرباط هو عصبها الثاني»[1]، ويختـزل تاريخ المنستير في العصر الوسيط بهذه المقولة أيما اختزال؛ ذلـك أن ظهورهـا وتطورهـا قـد ارتبطا بشـكل واضح بتطـور الجهـاز الدفاعي الإفريقـي، ومن ثـم الاستراتيجيات العسكرية لـكل من الأغالبة ثـم الفاطميين، كمـا ارتبطاً بالمنـاخ السياسي والثقافي الإفريقيين، هـذا المناخ الذي أوجب في نهاية القرن الثالث وبداية القـرن الرابع للهجرة مقاومة شديدة للمذهب الشيعي الإسماعيلي الذي قامت على أساسه الدعوة، ثم الدولة الفاطمية.

1) المنستير تتحول من ثغر إلى رباط

عدّ رباط المنستير أقـدم الرباطات الإفريقية[2] في حين أثبتت دراسات عدة وقرائـن متعـددة أن نشـاط المرابطـة ـ بشكله البسيـط (المثاغـرة)، أو بشكله المتطـور حيث الإقامـة في حصون معـدة أو معـادة التهيئة للمراقبـة ـ قد سبق مجيء هرثمة بن أعين[3].

1 ـ المالكي، **رياض النفوس**... نفس المصدر، ج 1، (تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة 1959)، ص 4.

2 ـ Djaiet (H) et Alii, *Histoire de la Tunisie*: le moyen Age, STD Tunis, p73.

3 ـ انظر حول هذا الموضوع (حسب أسبقية التأليف):

ـ مـراد الرمـاح، **تاريـخ مدينة سوسة مـن الفتح إلى مجـيء الموحديـن**، أطروحة دكتوراه تحت إشراف: أ. ابراهيم شبوح، تونس 1981 (مرقونة)، ص 120 وما بعدها.

ـ رياض المرابط، **الرباط ومجتمع المرابطين بإفريقية إلى نهاية القرن الثالث للهجرة**، =

ويعـزى هـذا الخلط فيما يبـدو إلـى الأهمية البالغـة التي توليهـا المصادر التاريخية ـ وهي مالكية بالأساس ـ لرباط هرثمة أكثر من غيره، وهو أمر يستدعي التوقف عنده، فمن المفيد أن نذكر مبدئياً أن ظروف الخلافة إثر استقرار العرب ببـلاد المغرب، وظـروف إفريقية نفسها، لـم تكن تسمح بالانطـلاق في مشاريع كبيرة؛ نظراً لاشتغال الإدارة العربية بهاجسين متزامنين:

- داخلي، تمثل في انتفاضات المغاربة وشغب الجند.
- خارجي، جسمه الخطر البيزنطي من جهة البحر[1].

وفـي ظل هذه الظروف العصيبـة استغل العرب في عهد الـولاة الأمويين على الأقـل الحصون البيزنطية الساحلية للمرابطة، مثل قصـر «ينقة» الذي كان عامراً بالمرابطين في القرن الثاني للهجرة[2]. ومع قيام الخلافة العباسية تضاعف الخطر البيزنطـي من جهة، وصـارت سياسة الخلافة تهدف إلـى المحافظة على ما تحت أيديهـا، وخاصة بالنسبة للجنـاح الغربي من الدولة أكثر مـن السعي إلى التوسع[3]. ذلـك إذن هو الاطـار الحقيقي لقدوم هرثمة والياً علـى إفريقية سنة 179 هـ/795م لدرء المخاطر الداخلية والخارجية، ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن ابن أعين هو الذي أشرف بنفسه على تنفيذ السياسة العسكرية لهارون الرشيد المتمثلة في إلغاء نظام الصوائف والشواتي، وإنشاء ولاية الثغور، وذلك منذ سنة 171 هـ/788م؛ حيث بنـى هرثمة حصوناً في غير موضع[4]، وفي نطـاق هذا المشروع المتكامل والشمولي

= رسالة كفاءة في البحث، تحت إشراف: محمد حسن، تونس 1988، ص 56 ـ 59.

ـ ناجي جلول، **الرباطات البحرية الإفريقية في العصر الوسيط**، تونس 1999.

1 ـ Djaiet (H),«La Wilaya d'Ifriqiya au II / IIIème Siècles: études institutionnelle», *Studia Islamica*, Fase XXVI, p116.

2 ـ مراد الرماح، **تاريخ مدينة سوسة..**، ن م ص 120.

3 ـ حسيـن مؤنـس «المسلمـون فـي حـوض البحر المتوسـط إلى الحـروب الصليبيـة»، **المجلة التاريخية المصرية**، مجلد 4، عددا، ص 4.

4 ـ الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج 8، ص 234.

يتنزل بنـاء رباط المنستير وترميم سور طرابلس. ولسائـل أن يسأل: كيف تقتصر إنجازات هرثمة على معْلمين فقط في نطاق مشروع بحجم إمكانيات دولة الخلافة؟

يحيلنـا ذلـك مجـدداً إلى الأخـذ بعيـن الاعتبار أهميـة التـراث العتيق من التحصينات، ووجود شبكة أخرى محدثـة في عصور الولاة متناغمة مع متطلبات الدفـاع العباسية، فكان تأسيـس قصر المنستير بمثابة تـدارك ثغرة خطيرة في الجهـاز الدفاعي، وما يفسر الحـاج البهلول بن راشد على موقـع المنستير حين استشيـرت النخـب الإفريقية في أوكـد التدخلات المزمـع إجراؤهـا، خاصة أن المنستير تمثل مدخـلاً مباشراً للقيروان عاصمة السيادة العربية بإفريقية. علينا أن نضيـف أيضاً ـ لكي ندرك هالة القداسة التي أسبغت على المنستير والمرغبة فـي المرابطة فيـه ـ أن نشاط المرابطـة لا يمثل للجند العربـي ـ مصدر قلاقل القـرن الثاني ـ نشاطاً مجدياً لضعف احتمالات الصدام، وبالتالي المغنم؛ ولذلك كان البديـل هو العناصر المتطوعة والتي وقـع تشجيعها بمختلف الوسائل بما في ذلك الأحاديث الموضوعة[1].

وخلاصة القول: أن تأسيس الرباط سنة 180هـ /796م مثّل بالنسبة للمنستير انتقالاً جوهرياً من ثغـر مكشوف نسبياً إلى معقل حصين مرتبط بإرادة الخلافة نفسها، وفـي هذا النطاق فقط يكون ربـاط المنستير أقدم أربطـة إفريقية، كما يمثل هذا الإنشاء نقطة تحول جذري في طبيعة ساكني الموقع الذي صار توافدهم مرتبطـاً بفكرتي التطـوع وقدسية المكان، وهمـا سمتان رئيستـان تفسران تطور المنستير في المراحل اللاحقة.

2) من الرباط إلى مجمع الأربطة

بقطع النظر عن عَدّ الرباط في حد ذاته مدينة ـ من حيث هو فضاء معماري

1 ـ أبو العرب، **طبقات**... ن م ص5.

يضم مجتمعـاً ينحدر من عينات مختلفة، مما قد يمثـل مشروعاً مستقلاً لتوسيع مفهـوم المدينة العربيـة ـ فإننا نتساءل: متى يمكـن بالضبط الحديث عن مدينة أو مصـر «المنستير» بالملامـح الكلاسيكيـة المتعارفة، والتي وضـع ابن خلدون شروطها الاجتماعية من حيث هي موضوعة للعموم لا للخصوص[1]، ومن حيث إنها توفـر بنفسها ضروراتهـا: «الأمصار التي لا توفي أعمالهـا بضروراتها لا تعد من الأمصار..»[2]، وتعبر الأسواق عن أهمية المدينة؛ حيث خصص ابن خلدون فصلاً كامـلاً في «أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثـرة والقلة»[3]، وعلى هذا الأساس فالمدينة العربية قبـل كل شيء فضـاء اجتماعي مستقـر، سكانه متعـددو الوظائـف والنشاطات، منتجـون للثروة، ومتصرفون في فوائض إنتـاج محيطهم الاقتصادي عبر التبادل التجـاري. ممـا يتجسم معماريـاً في وجود منـازل تستوعـب العائـلات، وأسواق يتعاملون فيها، ومنشـآت تدفع عنهم المخاطر وترمز لسلطة ما، وجامع يعبر عن هويـة سائدة، فمتى تحقق الحـد الأدنى المعقول من هذه الشـروط في المنستير لنتحدث عنها كمدينة، والأهم كيف تحقق ذلك؟

المؤشـرات التي تتوفر فـي هذا الخصوص متنوعـة ومتضاربة، أقدمها نص للمالكي يقول فيه عند ترجمته لمكرم المتعبد (من مرابطي أواسط القرن الثالث للهجرة ومعاصر لمحمد بن سحنون ت 256 هـ).

«وذكر شيوخ المنستير أن الروم أتـوا مرة إلى المنستير وقد أصابهم عطش شديد فاستسقوا الماء فلم يسقوهم ومنعوهم أخذ الماء، فاستسقى الروم وأسبلوا شعورهم ودعـوا فأمطروا، فنصبوا الأنطـاع وتلقوا بها المـاء فشربوا حتى رووا.

1 ـ ابن خلدون، **المقدمة**، الباب الرابع، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979، ص 609، 677.

2 ـ نفس المصدر.

3 ـ ابن خلدون، **المقدمة**، الباب الرابع، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979، ص 609، 677.

قـال مكرم لأصحابـه: هاهنا قوم جهال لا علـم لهم، قد داخـل قلوبهم من هذا شـيء، ويظنون أن هؤلاء على حق. قالوا: واجتمـع شيوخ المنستير بجماعتهم إلى مكرم وصلوا ركعتيـن واجتهدوا في الدعاء، فأرسـل الله سبحانه ريحاً من داخل البحـر فكسرت مراكبهم ورمتهم على شاطئ البحر، قال: فخرج إليهم المسلمون وغنموهم وجمعوا جميع ما حصل من ذلك، وبنوا به ربض القصر الكبير»[1].

يوحـي ظاهر النـص بأن المنستير عرفـت ربضاً منذ أواسـط القرن الثالث للهجـرة، ولا يفوتنـا أن ننبـه ـ قبل تقبل هذا الإيحـاء ـ إلى الطبيعـة الأسطورية للقصـة الواردة فـي النص، أمـا بالنسبة لعبـارة الربض فلا شـيء يحملنا على فهمهـا بالمعنى الذي ساد في العصر الحفصي مثلاً، والمتعلق بتوسعة في مدينة بإقامـة حي جديد (ضاحية مباشـرة)، أولاً لأن الرباط لم يكـن إلى هذا الحين مدينة، ونستبعد ثانياً أن تكون أخشاب بضع مراكب ـ مهما كانت أهميتها ـ كافية لبناء حـي سكني، فالربـض هنا ليس سوى توسعـة أو إضافة لأصـل معماري هو قصـر الرباط، فمن معاني الربض في اللغة الأبنية خارج المدن أو تحت القلاع[2]، وهنا نلتقي بدراسة الأستاذ ليزين التي تؤكد أن الرباط شهد خلال القرن الثالث للهجـرة توسعـة؛ هامة حيث انتقلـت مساحته من 1300 متر مربـع إلى 2300 متر مربـع[3] وما يدعم هـذا الاستنتاج أن إفريقية تعرضت فـي أواسط القرن الثالث ـ وفـي سنة 245 هـ تحديداً ـ إلى زلزال عنيـف أضر بحصونها[4] مما يستوجب فعلاً إصلاحات عميقة قد تكون هي التي قصدها النص.

في القـرن الرابع للهجرة (العاشـر ميلادي) زار ابن حوقـل المنستير، ولم تسـترع انتباهـه سوى عظمـة رباطها، وأهميـة أوقافه، مؤكداً علـى تواصل قدوم

1 ـ المالكي، **رياض النفوس**...، ج 1، ص 421.

2 ـ ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، مادة ربض.

3 ـ LEZINE (A) *le Ribat de sousse*...op cit p41.

4 ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 287.

المرابطين دورياً جالبين معهم الأطعمة النفيسة، مما يؤكد غياب عنصر السوق، وبالتالي غياب نشاط حضـري بالمعنى المحدد أعلاه، فإن لم تكن المنستير إلى غاية أواسط القرن الرابع للهجرة مدينة فماذا كانت إذن؟

يبدو أن المنستير ارتبطت بدرجة أولى بنشاط المرابطة الذي عرف ازدهاراً منقطـع النظير في القـرن الثالث للهجرة؛ لأسباب عديـدة ومتنوعة غير العوامل العسكريـة؛ حيث أصبحت المنستير تضم في القـرن الثالث ما لا يقل عن خمسة أربطـة متجـاورة هي: القصـر الكبير، وقصـر دويـد، والقصر الـذي أقيم على أنقاضـه قصر السيدة، وقصر ابن جعد الـذي كان قائم الذات قبل سنة 256 هـ، وقصر سقانص. نحن إذن إزاء تجمـع كبير للحصون نطلق عليه مجمع الأربطة، يتمتـع بقداسة كبيرة منعت الفاطميين عند ارتقائهم لعرش إفريقية من التجاسر عليه مثلما فعلت بسائر حصون إفريقية، التي قطعت أوقافها، وخلت من أسلحتها وعبادهـا، وقـد سبب هـذا الموقـف الفاطمـي الليّن مزيـداً من التطـور لمجمع الأربطة؛ حيـث احتمت به جموع أهـل السنَّة، كما سبب بدايـة ارتباط بالعاصمة الجديدة دونما قطيعة مع القيروان.

III- مجمـع الأربطة: شكل تعميري خصوصي ونادر دون المدينة حجماً وأعلى منها مكانةً

إن معرفتنا بالمدن الإسلامية ـ رغم مئات الدراسات المتفاوتة قيمة وحجماً ـ ما زالت محـدودة؛ ذلك أن معظم الدراسات تناولـت العواصم الكبرى ومراكز السيـادة في الأقاليـم، بحيث ترسخت فـي أذهاننا صور نمطيـة للمدينة العربية الإسلامية، لا بد من مراجعتها، وتسليط الضوء على نماذج إضافية من الحواضر، سيما تلـك التي لا تستجيب للصـورة النمطية التي تتراءى فيهـا المدينة كفضاء سلطـة يختزلها المسجد الجامع ودار الإمارة أو ما يقوم مقامها في المركز الذي

يحيطه حزام الأسواق، ومن خلفه الأحياء التي تعكس كتلاً اجتماعية بعينها سواء كانت قبلية أو عرقية أو طائفية. وتبدو وفق هذه الصورة المدينة متدرجة تدرجاً مستمراً من العام إلى الخاص إلى حدود الأسوار؛ حيث يستعيد الفضاء العام حضوره ممثلاً، إما في المقابر أو الأرباض أو كليهما[1]؛ لكن المنستير وإلى غاية القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد تشذ عن هذه «القاعدة»، وتحمل مميزات عمرانية مخصوصة.

يبدو أن المنستير ارتبطت بدرجة أولى بنشاط المرابطة الذي عرف ازدهاراً منقطع النظير في القرن الثالث للهجرة

1) سيطرة الفضاء العام على الفضاء الخاص

يبلغ أقصى امتداد للمدينة المسورة حالياً 28 هكتاراً؛ لكننا نعرف ـ من خلال شهود عيان ـ أن المدينة لم تتجاوز في نهاية العصر الوسيط 8 هكتارات من المساحة، وإذا ما توقفنا عند المعالم المنسوبة إلى العصر الوسيط المتقدم فإن مساحة هذا المجمع هي في حدود الأربع أو الخمس هكتارات، بحيث هي أقرب إلى القلعة الضخمة منها إلى المدينة، ونجد في مدن إفريقية كانت أيضاً مراكز رباط ما يشبه هذه الأبعاد سيما مدينة الحمامات المسورة المعروفة بالبلد، ومدينة بنزرت المعروف قسمها الأقدم بالقصيبة[2]، داخل هذا الفضاء نجد ـ بالإضافة إلى القصر الكبير أو قصر هرثمة الذي تتركز حوله معطيات المصادر ـ قصر دويد بن إبراهيم، وهو رباط أسس كعمل خيري من قبل أمير أغلبي انقطع إلى العبادة، كما نجد رباطاً آخر يدعى قصر السيدة، نسبة إلى السيدة أم ملال عمة المعز لدين الله الصنهاجي المتوفاة سنة 413 هـ/1022م.

1 ـ Sayadi (M S) *Monastir Essai d'histoire sociale du XIX eme Siècle*, *Tunis*, 1979 p 96 - 98.

2 ـ انظر: خاصة: Bouita (H) les monuments islamiques, Tunis. 1992.

ويعـود هذا القصـر بكل تأكيـد إلى أواخر القـرن الرابع للهجـرة / العاشر ميـلادي، كما نجد خارج الأسـوار قصر ابن الجعد في جزيـرة المنستير وقصر سقانص الذي قد يكون مستقلاً عن هذه المجموعة[1].

الأكيد أن المنستيـر قد عرفت خلال القرون الثلاثة الأولى التي تلت تأسيس القصـر الكبير تطوراً معمارياً ملحوظاً، نجد صداه بشكل خـاص عند أبي عبيد البكـري (487 هـ/1085م) الـذي يقـول: «وبالمنستير البيوت والحجـر والطواحين الفارسيـة ومواجل المـاء، وهو حصن عالي البناء متقن العمـل، وبالطبقة الثانية منـه مسجد لا يخلو مـن شيخ فاضل... وقـال محمد بن يوسف: هـو قصر كبير عـال، داخِلُهُ ربـض واسع، وفـي الربـض حصن ثان كثيـر المساكـن والمساجد والقبـاب العالية، ومن القبلة منه صحن فسيح فيه قباب عالية متقنة تنزل حولها النساء المرابطات»[2].

يحتـوي النص علـى وصفين مختلفين لمعلـم واحد، استقاهمـا البكري دون شـك من مصدرين غير متزامنين يتعلق الأول برباـط القرن الثالث للهجرة بعيد هرثمة، وأخـذ الثاني عن محمد بن يوسف القيرواني (وهو من شخصيات القرن الرابع للهجرة)، ويتحدث عن ربـاط القرن الرابع على الأقل بعد أن أدخلت عليه تعديـلات كبيـرة، والملاحظات التي يبـدو من الضـروري تقديمها حـول النص تتلخص فيما يلي:

- **أولاً**: تتفـق الفقرتان علـى عدِّ المنستيـر معلماً واحـداً عسكري الطابع (حصن عالي البناء... قصر كبير...)

---

1 ـ لمزيد التفاصيل ينظر:

ـ رياض المرابط، **الرباط ومجتمع المرابطين**.... ن م، ص138 ـ 139.

ـ ناجي جلول، **الرباطات البحرية الإفريقية**.... ن م، ص 98 ـ 108.

2 ـ البكري (أبو عبيد)، **المسالك والممالك**، تح. أدريان فان ليوفن واندري فيري، الدار العربية للكتاب/ بيت الحكمة، تونس 1993، ج 2، ص 692.

- **ثانياً**: تتفق الفقرتان أيضاً على وجود الجامع بين سكان المنستير وشيوع الصلاح والعبادة والانعزال عن الارتباطات الاجتماعية المألوفة.
- **ثالثاً**: قد يتصور بعضهم أن البيوت والحُجَر والطواحين الفارسية تمثل عمائر حي سكني، وهو تصور مردود يتعارض مع:

أ ـ طبيعة السكان المنقطعين عن الأهل؛ لأن الحي هو مجموعة وحدات اجتماعية وليس أفراداً.

ب ـ مع بعض المؤشرات التاريخية التي تعود للقرن الرابع، والتي تؤكد غياب حياة اجتماعية عائلية، فقد كان المرابط أبو الحفص عمر بن عبد الله الصدفي يقطن بالمنستير وزوجته بسوسة. وعليه فإن البيوت والحُجَر المشار إليها ليست سوى مساكن المرابطين، أما الطواحين فترتبط بأهمية أوقاف الرباط وبأهمية الحبوب كغذاء رئيس للمرابطين.

- **رابعاً**: تتعلق الفقرة الثانية من النص فعلاً بما نشاهده الآن في القطاع القبلي من إضافات تعود للقرن الرابع بمستوى الطابقين السفليين على الأقل؛ حيث يبدو قصر الرباط بسببها كأنه معلم كبير بداخله معلم آخر متعدد العناصر، والإضافات تمت بسبب سيطرة نزعة التطوع التي تدفع بعض الميسورين إلى إنجاز إصلاحات وتوسعات أو إضافات داخل الحصن نفسه كأعمال خيرية لا غير.

من جهة أخرى تعدد بهذا الفضاء المساجد المستقلة عن مساجد القصر، وأهمها المسجد العتيق الذي كان ممنوعاً فيه الخطبة إلى زمن الإمام سحنون، والذي شهد توسعة مهمة خلال النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة /العاشر للميلاد، إضافة إلى مسجد الأنصار المجاور له من ناحية القبلة، والذي يعود إلى

ما بين القرن الثالث والرابع للميلاد، وتكتمل هذه القائمة بمسجدي التوبة والمعز اللذيْن يعودان أيضاً إلى العصر الزيري[1].

من الواضح أن المنستير عرفت خلال الفترة الزيرية (النصف الثاني من القرن الرابع ـ النصف الأول من القرن السادس للهجرة، القرن العاشر ـ القرن الثاني عشر للميلاد) تطوراً معمارياً وعناية بالغة، لا تخالها خارجة عن إطار انتصار هذه الأسرة الحاكمة لأهل السُّنَّة بعد أن كانت تحكم باسم الخلافة الفاطمية، ولنا أن نتساءل عن معنى وجود هذه المساجد والمصليات، والتي تشبه مساجد الأحياء دون أن يثبت لدينا وجود أحياء أو حارات؟

إن الجواب يكمن في طبيعة المرابطين أنفسهم، إذ كان قسم منهم موسمين يزدحمون على المجمع في شهر رمضان وفي عاشوراء على الأقل خلال القرنين الرابع والخامس، ولا بد لهؤلاء الزوار الذين لا يدخلون الحصون من ساعة غلق أبوابها عند المغرب إلى ساعة فتحها بعد الصبح من فضاءات للعبادة خارج مساجد الرباطات، من جهة أخرى فإن تعدد مدن المساجد يفسَّر بالإقبال على الأعمال الخيرية من قبل وجهاء القيروان والمهدية.

نلاحظ من جهة أخرى تضخماً متزايداً لمدينة الأموات، حيث كان المرابطون يصرون على اتخاذ مدافنهم داخل أسوار الرباط، وقد اتبع الفاطميون والصنهاجيون هذا المنحى، والمتأمل فيما وصلنا من شواهد قبور المقبرة البحرية بالمنستير يلاحظ تدرجاً مع مرور الزمن في طبيعة الانتماء الاجتماعي المدفني من الفئات الراقية إلى العوام حتى باتت المنستير مقبرة أهل المهدية ولربما عموم أهل الساحل[2].

---

1 ـ حول مساجد المنستير ينظر:

ـ عفاف الهلالي، **المعالم الدينية بمدينة المنستير، رسالة التعمق في البحث**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، تونس 1999.

2 ـ سليمان مصطفى زبيس، **ديوان النقائش التونسية، الجزء الثالث، نقائش المنستير**، تونس 1966.

2) غياب مكون رئيس للمدينة الإسلامية الكلاسيكية: السوق

إذا ما تأملنا مخطط المدينة كما انتهت إليه في آخر العصر الوسيط سنجد بها سوقين، كل واحد عند مدخل من مدخلي المدينة: سوقاً صغيرة متصلة بباب السور جهة القبلة، وهو أقدم أبواب المنستير، وسوقاً أخرى عند باب الدرب الباب الرئيس للمدينة في العهد الحفصي (ق 7 هـ/13 م)، ويدل موقع السوقين على تأخرهما في الفضاء الحضري؛ بحيث يعبران عن مرحلة لاحقة من نمو المنستير تعود إلى ما بعد الفترة التي تعنينا.

فهل احتوى مجمع الأربطة على ما يمكن أن يماثل سوقاً، وكيف كان معاش الناس إذ لم يوجد سوق؟

تؤكد النصوص ما توحي به المعطيات المبدئية من ذلك ما يورده المالكي[1] من أن المرابط أبا الفضل الغدامسي أرسل خادمه في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة إلى سوسة ليشتري له عسلاً وسميداً وزعفراناً منها، ومن الضروري أن نؤكد مرة أخرى أن غياب عنصر السوق عن مجمع الأربطة يمثل إحدى السمات الرئيسة التي تميزة عن المدينة التقليدية، غير أن ذلك لا يعني غياب النشاط الاقتصادي تماماً، فلقد لاحظ ابن حوقل أهمية أوقاف رباطي سقانص والمنستير فما هي صلة المرابطين بهذه الأوقاف؟

من الناحية النظرية نهي عن الانتفاع الشخصي بحمى الرباط منذ عهد المرابط أبي الفضل يوسف بن مسرور (عاش بين 251 هـ ـ 324هـ)، الذي ألّف كتاباً (في الأحمية وما يجب على أهل الحصون أن يعملوا به)، وهو نهي يفيد ـ برأينا ـ حصول الممنوع؛ حيث يقول النص: «إن أحسن الأمور لمن سكنها أن يسكنها ومعه ما ينفق على نفسه ومن تلزمه نفقته، وأن يكون من حلال وإن مسته فاقة، فلقد رأيت له إن كان ذا صنعة أن يعمل صنعته... وإن لم يكن له قوة فليخرج

1 ـ المالكي **ورياض النفوس**...ن م ج2، ص 440 ـ 441.

وليحرث ما يكفيه عند الإخوان، فهذا أحب إلي من الحرث في الحمى؛ لما فيه من الشبهة»[1].

يؤكد هذا النص وجود ملكية عامة مخصصة لحاجيات عموم مجمع الأربطة، قد يتعمد بعضهم استغلالها لنفسه، إلى جانب ملكية خاصة ببعض المرابطين الميسورين؛ بينما يضطر فقراؤهم للعمل بها كأجراء، مثل المرابط أبي منصور الطرابلسي الذي كان (يؤاجر نفسه في الحرث)، كما كان أبو الفضل الغدامسي يحتطب لفائدة المرابطين، كما توجد إشارات أخرى تفيد بوجود أنشطة متنوعة، كصيد السمك بسقانص والتن بالمنستير وحتى الحياكة بقصر الطوب بسوسة، غير أن هذه الأنشطة الاقتصادية لم تكن موجهة فيما يبدو لغير تأمين الحاجيات الأساسية للرباط بواسطة أرزاق أحباسه، وتأمين الخدمات الحياتية للمرابطين يتنافى في كل الحالات مع طبيعة الأمصار الإسلامية والمدينة بشكل عام[2]. نحن إذن إزاء اقتصاد معاشي لا أكثر وربما أقل.

الخاتمة:

إن أهم ما يمكن الخروج به من هذه القراءة السريعة في تاريخ المنستير هو أن تطورها لم يكن بمعزل بتاتاً عن السياق الحضاري العام بإفريقية والعالم الإسلامي؛ حيث مثّل انعكاساً مباشراً للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، غير أن هذا الانعكاس جاء في نسق خاص بالمنستير يرتبط بخصوصياتها المقدسة التي لازمتها في العصر الوسيط المتقدم، والتي جعلت منها مركزاً روحياً ثرياً متعالياً معنوياً على وضع المدينة التقليدية التي لم تولد فعلاً إلا في نهاية هذا العصر، وتتلخص مراحل هذه الولادة العسيرة في الفترات التالية:

---

1 ـ نفس المصدر، ج1، ص 196، و ص 209.

2 ـ انظر التفاصيل في مقالنا:

ـ رياض المرابط «أبو الفضل الغدامسي بين مرابطي عصره»، **مجلة مدارات**، مجلد7، عدد 13ـ 14، تونس 2001، ص 40 ـ 51.

- فترة الثغر المكشوف من الفتح إلى سنة 179هـ/180هـ لم ينل فيه الموقع حظاً كبيراً رغم أهميته الاستراتيجية، ولعل ذلك بسبب بعده النسبي عن خط المواصلات العتيق سوسة ـ لمطة.
- فترة الرباط المفرد من تأسيس القصر الكبير 180هـ إلى أواسط القرن الثالث تميز فيها الرباط بصبغته المقدسة النابعة من مركزية قرار إنشائه فهو رباط الخلافة لو صح التعبير.
- مرحلة مجمع الأربطة من أواسط القرن الثالث إلى أواسط القرن السادس عرفت فيها المنستير أوج إشعاعها الحضاري.

بعد القرن السادس للهجرة تندر الأخبار عن المنستير، ولو أن السلطة الحفصية واصلت العناية بها كمركز روحي مهم، فجددت أسوارها في أواسط القرن السابع، وأصلحت القصر الكبير في بداية القرن التاسع؛ ولكن ضغط الأعراب خارجها أدى ـ بعد أن امتنعوا عنها طويلاً وامتنعت عنهم ـ إلى اقتحامها وإجلاء مرابطيها والاستحواذ على أوقافها، وما كان من السلطة المركزية إلا أن خضعت للأمر الواقع معينة أحد وجهاء الأعراب أميناً للقصر الكبير، وهكذا فقدت المنستير هيبتها، ولو أنها ارتقت إلى رتبة مدينة، مدينة سيصفها الحسن الوزان في القرن العاشر للهجرة بقوله: «تحيط بها أسوار متينة عالية، ودورها مبنية كذلك في الداخل بعناية... وما لا شك فيه أن أهلها فقراء إلى حد التسول... وأغلبهم نساجون أو صيادون... إلا أن الملك يثقل المدينة بما لا طاقة لها به من الضرائب»[1].

ولكن بعد الفتح العثماني ستعرف المدينة نسقاً جديداً في نموها حيث تضاعفت مساحتها خلال قرنين من الزمان (القرن 10هـ والقرن 12هـ) أكثر من ثلاث مرات، وتلك صفحة أخرى من تاريخها الحضري[2].

1 ـ الحسن الوزان (المعروف بليون الإفريقي)، **وصف إفريقيا**، تعريف محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 8، 1983، ج2، ص 84.

2 ـ حول المنستير في الفترة الحديثة ينظر بشكل خاص:
Saydi (MS), Monastir au XIX ème siècle: essais d'histoire sociale, Tunis 1969.

خريطة التطور العمراني لمدينة المنستير

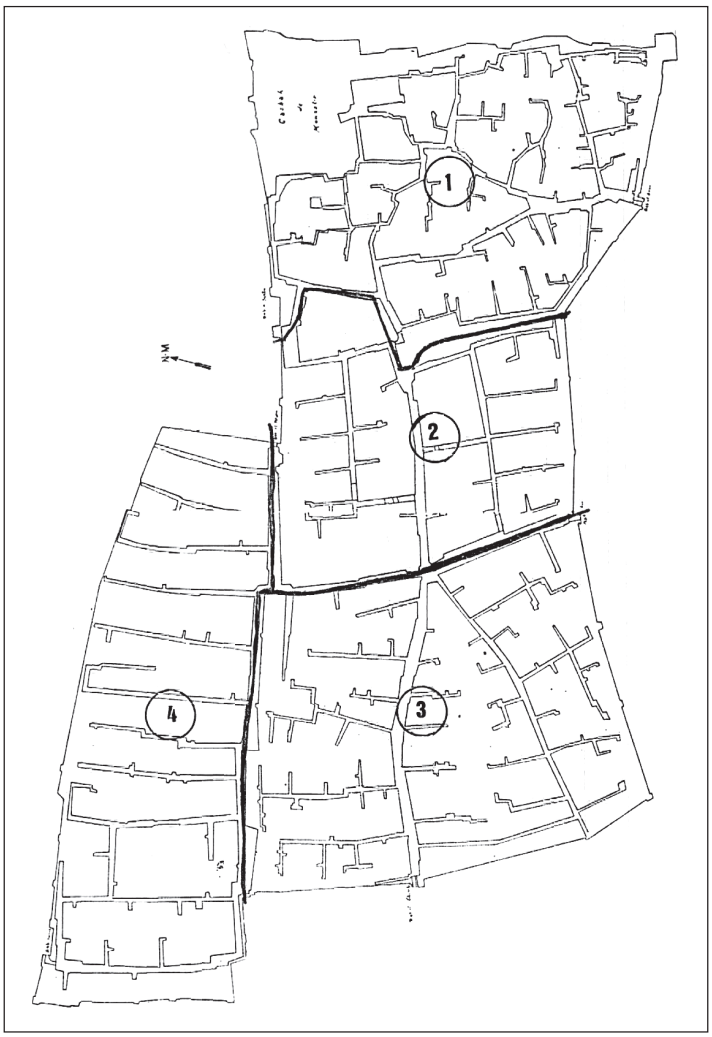

1. المدينة قبل القرن 16م (حومة المدينة).
2. أحياء القرن 17/16م (الربض الأوسط).
3. أحياء القرن 18/17م (الربض الأقصى).
4. الربض الجديد أواسط القرن 18.